قراءة تفكيكية لكتاب فلسفة الثورة الجزائرية.
في فكر الأستاذ الدكتور: بخاري حمانة.

د. رايس زواوي
قسم العلوم الإجتماعية، جامعة سيدي بلعباس.
philo.devellop@gmail.com

الملخص:

لقد حطم الأمل الذي كان يمثل هاجس الانقلاب الثوري لأسطورة التفوق الحضاري للمستعمِر، بإدراك تجاوز المستعمِر المزعوم والكاذب، الذي طالما استخف بالثورة وبفكرها الانقلابي ،فبات لمعنى اللامرئي الذي ربطه المستعمر بالثورة بأنّه اللاحدث، عندئذٍ صار الحصار الذي لم يُحسب له حساب أن تحوّل إلى المرئي أثناء الاقتناع بأنّ مجابهة مؤسسة الاستعمار هي الحلّ الوحيد للفكر الثوري الشرعي.

لقد ربطت فرنسا على مرّ وجودها في الجزائر بين اللامرئي وسياسة الإجهاض للفكر الثوري بشتى الوسائل للإبقاء على أرضٍ ليست ملكها، فلم تنجح في الاستبقاء ما ليس لها، كون محاولتها أُجهضت مراراً إلى أن تيقنت بقدرة الثورة ومُدبريها.

الكلمات المفتاحية: قراءة تفكيكية؛ الفلسفة؛ الثورة الجزائرية؛ بخاري حمانة.

تمهيد.

يُؤسِّس الأستاذ- حمانة- لفلسفة الثورة بتحكيم لمعنى الأمل المرادف لفكر وقناعة بإستراتيجية- التصالح- أثناء تحطيم أسطورة الحصار التي مارسها المستعمِر في ميكانيزم العزل للثورة عن الإنسان الثوري بحدّ ذاته، وفعلياً وإن تم له ذلك فقد كان بشكل ظرفي، سرعان ما استطاعت الطلائع الثورية لتوظيف فكرة التجاوز للسياسة المزلَّفة للمستعمِر لقوله: « .. **وأنّ تصالحه، مع نفسه أولاً، ومع عصره بعد ذلك، متجاوزةً به تلك الهوّة النفسية والحضارية المُهوِّلة التي ظنّ المستعمِر أنه قد حاصره فيها إلى الأبد لتوصله، من جديد، ومن خلال تلك الحرية السياسية التي استعادتها له، بطلائع أمته العربية والإسلامية.. وبمسيرة عصره** ».

لقد حطم الأمل الذي كان يمثل هاجس الانقلاب الثوري لأسطورة التفوق الحضاري للمستعمِر، بإدراك تجاوز للمختلف (المستعمِر) المزعوم والكاذب، الذي طالما استخف بالثورة وبفكرها الانقلابي ،فبات لمعنى اللامرئي الذي ربطه المستعمر بالثورة بأنّه اللاحدث، عندئذٍ صار الحصار الذي لم يُحسب له حساب أن تحوّل إلى المرئي أثناء الاقتناع بأنّ مجابهة مؤسسة الاستعمار هي الحلّ الوحيد للفكر الثوري الشرعي.

مفهوما الحصار والتجاوز.

لقد ربطت فرنسا على مرّ وجودها في الجزائر بين اللامرئي وسياسة الإجهاض للفكر الثوري بشتى الوسائل للإبقاء على أرضٍ ليست ملكها، فلم تنجح في الاستبقاء ما ليس لها، كون محاولتها أُجهضت مراراً إلى أن تيقنت بقدرة الثورة ومُدبريها، خصوصاً سقوط الجمهورية الرابعة (1946-1958) وكأنّ ترابط الحدثين اندلا ع الثورة والصراع الداخلي للجمهورية الرابعة، في تشكيل مُحكَم لمعنى الداخل والخارج (الثورة- فرنسا) في سيطرة الخارج (الثورة وفكر الانقلاب) على الداخل (سقوط الجمهورية وتآكله بفعل الصراع) عجلا في مراجعة فرنسا لسياستها إزاء الثورة الجزائرية.

لقد استطاعت فلسفة الثورة باستثمارها الفعلي لمعنى التجاوز للصراع الداخلي للجمهورية الرابعة، لكسب مزيداً من الدعم الداخلي والخارجي العالمي، في تحديد لفهم الارتباط بين الجزائر وفرنسا منذ الثورة وإلى اليوم، بخلاف الارتباط بين الدول المغاربية (كتونس- المغرب) بفرنسا، في عصرنا الحالي، حيث فرنسا أرادت أن تكتب تاريخ الثورة وفقاً لسياسة الحصار التي مارستها على الثورة كمسار وكقناعة ثورية، فلم تتوان أن تصف الثورة بالحدث للتقليل من عِظمها وبأنّ مآلها مثل ما بدأت ستنتهي أياماً، وهذا دائما لتسويفها من أنّ- الثورة- هي صدفة، في حين: « **أنّ الوقائع التي تحمل صفة التاريخية، لا يمكن أن تتحقق دون قصدٍ..أو عقل، بل لابد أن تكون وراءها فكرة كما يؤكد كولينغود ذلك** »،[1] فيقف الأستاذ – حمانه- على ربط الثورة كفكرة بتطبيقها الإيجابي لاستعادة الحريات والحقوق والمصير

والهوية من خلال توظيفه لممارسة علم النفس في تحليل شخصية المستعمِر المستند على معرفة طقوس وعادات وسمات القُواد والساسة حتى يتم إحداث الانقلاب على الدخيل وإلحاق الأذى الكلي بمؤسساته وبنياته التحتية لقوله: « .. **تمثلاً كفيلاً بتمكينها من اختراق معطياته الظاهرية، وصولاً إلى النفاذ إلى الأسس الفكرية، والنفسية والمادية التي يستند إليها ويستمد رسوخه واستمراره، لتقويضها ودحرها. وليس ذلك التمثل النقدي للواقع الاستعماري، سوى ما نسميه بالفلسفة الثورية** »، [2] من خلال الإيمان بالارتباط بين الفكر الثوري والواقع أإثناء تحليل المتضادات التي تتأسّس عليها أية ثورة لخلق توازنها.

يؤمن الأستاذ- حمانه- بفكرة الحفر عميقا في الحدث أو الثورة للكشف عن: « **الأفكار القابعة وراء أحداثها** » [3] حتى يتسنى وصف الثورة بأنها حُبِكت من طرف ثوريين ولسياسة مستقبلية أرادت تغيير الواقع بفكرة أخرى لواقع أحسن، فيعود إلى دراسة الترسبات التاريخية التي شكلّت نفاق المستعمِر، للوقوف على دراسة قريبة من المستحيل الذي أضحى منطوقاً في نظر الثورة الجزائرية، فيبحث الأستاذ وراء الظاهرة لقوله: « **نعتقد أنّه قد آن الأوان للبحث عنهما- ثورة نوفمبر كفكر وفلسفة- وعن أسسها وصولاً إلى إخراج هذه الثورة من دائرة ذلك التناول الحماسي والعاطفي المحض لها إلى مجالات البحث الموضوعي لها..** ».[1]

الثورة وفلسفة التوقف:

يجعل الأستاذ – حمانه– من دور الشعب في تحريك الثورة عملاً ديناميكياً فعالاً لتجسيده الربط بين فكرة الوطنية وفلسفة الثورة، فيقف عند دور الجماهير الشعبية في الجزائر بأنّها تستحق – *التوقف*– لدراسة هذا الدور، فيأخذ التوقف عند الباحث الفيلسوف منعرج مُحدِّد للثورة وهام بالنسبة لقادته الثوريين.

يُرسِّخ الأستاذ فلسفة التوقف لدراسة شريحة المجتمع الفعالة للثورة والمهمّشة من دورها في تحريك الثورة التحريرية، فيدعونا إلى إعادة النظر إلى المجتمع لا كوسيط بين مُحركي الثورة ومنفذيها، بل إلى اعتبارهم ضحية أولية لهذا المسخ الاستعماري، ليصل بنا إلى محطة أخرى هي أنّ المسار التاريخي للثورة هو في إعادة قراءته وصنعه من جديد، ليطرح في فلسفة عملية للأجيال يُحسن التعامل معه كواقع مُعاش وحيّ:« **ولكي تحقِّق الفلسفة مثل – ذلك– (...) يجب أن تبلغ درجة من العمق في تمثلها له يجعلها قادرةٌ في النهاية على إحداث هزة عنيفة فيه** »[1] وهذا الارتجاج الذي يناشدُه الأستاذ على التاريخ والثورة هو منهجٌ فكري ممارس حتى نؤسِّس لفلسفة تاريخية مقدمة للمجتمع خصوصاً وللعالم عموماً، حتى تكون دفعاً إلى فهم ميكانزمات تطور العالم، وبتمثل للفلسفة الثورية الحقيقية كوعي وكقناعة وكعمل استثماري: « **يجعل الوعي الفردي والجماعي ينفد إلى الواقع الاستعماري ويتمثل بعمق معطياته...كشرط للخروج بمفاهيم جديدة عنه، تلك المفاهيم التي لا تلبث أن تبدأ في التفاعل داخل ذلك الوعي**

الفردي والجماعي محدثةً بذلك تلك الهزة العنيفة، التي لا تلبث أن تمتد في دوائر متتالية، ومتسارعة من الذات الفردية إلى الذات الجماعية، معلنةً عن ميلاد الثورة »[1] وهكذا يتلقى المجتمع العريض للثورة ولمبادئها بشغف كبير حيث العمل على ممارستها واقعياً مبدأ في حدّ ذاته و: « **تَجسُداً لا يزيد في النهاية الفرد والجماعة، سوى التحاما حولها..** »[2] فيزداد التجاوز، الرفض الفردي والجماعي لأكاذيب المستعمِر، فيتمثل المجتمع العريض للثورة ويتشرّب من مبادئها ولا ينزاح عنها ولو كلفّه ذلك حياته، المهم الحرية والمصير والسيادة..أثناء فكره الفلسفي الثوري..

نفهم أنّ دلالة الواقع كحالة معاشة تحمل معنيين:

- واقع المجتمع المحدِّد استعماريا.
- واقع المجتمع كما ينظر إليه الوعي الثوري بعد الاستعمار.

لهذا، كل تقدم أو وعي بالتغيير إلاّ ويتأسّس: « **على استحالة تقدم العالم الإسلامي بدون فلسفة** »،[1] كتجسيد فعلي وعملي للفكر الثوري واقعياً لتغيير هذا الأخير من حالة إلى حالة، المهم هو التبني بالعمل للفكر الفلسفي الثوري من خلال الانقلاب البعدي[**] فيؤسِّس الأستاذ للجهاز المفاهيمي المرتبط بالثورة، بأنّ حرب التحرير كانت ثورةً وليس عصيان أو تمرد أو شغب أو انتفاضة..

وأمام التغيرات العالمية للدعوة لاستقلال الدول العربية وغير العربية، بعد إعلان اجتماع سان فرانسيسكو 1945 على حقّ الشعوب المستعمَرة في تقرير

مصيرها، عندئذٍ: « **استطاعت الفكرة الوطنية، بعد نجاح أولئك الشباب الواعي بكل تلك الحقائق الوطنية الدولية، في انتزاع موافقة المؤتمر لهم بتكوين"المنطقة السرية " التي ستشكِّل (...) الرحم الذي ستخرج منه فكرة نوفمبر 1954 والثورة المجسدة لها** »[2] فحملت كل المقومات الأساسية من لغةٍ ودين ووطن..ثوابت مُتحامَلٌ عليها من طرف المستعمِر، زادت بتمسك الشعب الجزائري بمبادئه لاستئصال حقَّه المشروع من المستعمِر، وخصوصاً اللغة التي اعتبرت بمثابة وطنٌ للكينونة، ما يُبيِّن التفاف الشباب خصوصاً وعموم المجتمع بشرعية القضية، وأنّ الجزائر جزائرية، حيث ازدياد الوعي كان بتمثل لفلسفة تحررية أخذت من اللغة والدين والوطن ثورةً مشروعة على الانتهاك بحقّها، فلو لم يتشرب المجتمع الجزائري من دينه ومن عمليات الإصلاح والتوعية والرجوع إلى ماضيه الملء بالبطولات لا ليستمتع بمراحلها ومشاهدها، بل ليستقي منها العِبّر على أنّ عمليات الاسترداد تبدأ للتوّ، وأؤكد على دور الدّين في تفعيل فلسفة الثورة لدى الإنسان الجزائري، دون أن ننسى الدور السياسي والاجتماعي الذي تبناه القادة ورؤساء الحركات والأحزاب في إذكاء روح العمل المسلح ضد المستعمِر لاستعادة حق المواطنة والسيادة والمصير والحرية المشروعة..

يستمرّ الأستاذ في تقديم حجج على عمق فلسفة الثورة بعد أن اكتشفت تزلُّف المستعمِر لشعارات التحضير والتمدين [1] وجعله ما سواه من المجتمع الجزائري عبيداً ووصفهم بالدونية والرتابة، لهذا جلّ الأحياء التي وطّن فيها

المستعمِر الشعب الجزائري هي أشبه بالسراديب لضيقها وكأنها خُمُّ الدجاج، وما يُبيّن سخافة وتراجع اللعبة القذرة للمستعمِر، هو أنّ ما يزيد عن 27 ألف طفل كانوا متشبتين بعقيدتهم وثقافتهم سواء في الزوايا أو الكتاتيب وهذا خلال سنة 1860.

إضافةً إلى هذا كله، فالحياة السياسية نصيبٌ في تقريب الهوة بين طبقات الشعب الجزائري للالتفاف حول قضيته الأم والمشروعة بالوعي والنضال وتكريس الوحدة بين الحركات والأحزاب الجزائرية، وفعلياً، حدثَ شيءٌ من هذا القبيل، بعد سقوط وتنظيم الصفوف تمكّن الوعي من بث فلسفة الثورة لدى المجتمع الجزائري فحمل قضيته بنفسه أمام أكبر الجيوش الغربية (أسطورة فرنسا)، لتتأكد بالنسبة لفرنسا أنّ فلسفة الثورة بمثابة جريان الدم في عروق معتنقيها، فإذا كانت نهاية الأزمة بنهاية الحركة الوطنية، فإنّ هذه الأخيرة ليست هي الشعب الجزائري وفعلياً، تحوّلت من مجرّد- التوقف- إلى ثورة بدأت أكثر فعالية مع 01 نوفمبر 1954.

فالمتتبع أثناء قراءاته لتحليلات – حمانه- يكتشف أنّه أظهر فيها تشريحاً تفصيلياً لكل جزءٍ منها، حتى اللامنطوق أو المستحيل عن الاقتراب منه، وهذا في غاية بيان الفكر الحرّ الذي تميّز به الأستاذ الدكتور الباحث- حمانة- في دراسته للثورة الجزائرية ولفلسفتها.

ورغم الطابع التشنجي الذي تميّزت به فرنسا والمعمرِين إزاء الثورة وقذفها بالأسماء كا: الخارجون عن القانون إلاّ أنّ ذلك لم يزد الشعب الجزائري إلاّ

إصراراً على أصالة مطالبه وأحقيته بالسيادة والاستقلال في أرضه، – ولا أرض مَنْ لا أرض له– وأثناء تقهقرها حينا وإصابتها بالهستيريا حينا آخر، جرّاء تزايد المدّ المتصاعد للثورة الجزائرية، عندئذٍ اقتنعت بغرور مُكابر أنّ هاجس فلسفة الثورة قد بدأ سابقا من التمكُّن بالجزائريين والآن هو يُؤتي أُكله، والأكثر يعترف رجالات الثورة أنفسهم: « **بأنّ سبب الصعوبات، التي بدأوا يعرفونها وسط تصاعد تلك الثورة، هو المساهمة الجماعية، غير المتوقعة، بهذا الشكل وبهذه السرعة للشعب في الثورة** »[1] ما يدل على شدّة نزوعهم إلى المواطنة والمصير والحرية، وهذا لالتفافهم حول قيادتهم ومقوماتهم الوطنية والنضالية لقول الأستاذ– حمانه– : « **ومن هنا فإنّ المهم يصبح لا الاستمرار في التوقف عند مثل تلك" الإشكاليات"، بل إبراز تلك الفلسفة التي كانت وراء تلك الثورة التي حققتها** »،[1] فتحقُّق فلسفة الثورة واقعياً والتفاف الشعب حولها بحملها وتبني نموذجها النضالي كان باستلهامها لمفاهيم ثورية وقيم نضالية وشعارات سياسية وممارسات واقعية لكل التيارات الفكرية الفلسفية التي سبقتها وعاصرتها كذلك، فلم تكن بمنأى عن مجريات الحركات التحررية في العالم العربي وغير العربي.

لقد استلّت ثورة نوفمبر مبادئها النضالية من تاريخها الإسلامي الملء بالعبر والعظات الفكرية والثورية فالحديث عن الثورة، عامة، دينية كانت أو سياسية، لا يكون إلاّ في إطار التكامل بينها وبين ما قبلها، وبين ما بعدها كون: «**فالثورة لا ترتجل، إنّها اطرادٌ طويل، يحتوي ما قبل الثورة، والثورة**

نفسها، وما بعدها »،[2] فعندما تحدث الأستاذ- حمانه- عن الإخفاقات المتمثلة في الصراعات، تحدث عنها لأنّها لم تستفد من التجارب التي قبلها، فلو قرأوا دروس الثورة الصينية، وما تحمله من تواضع والأكثر الاعتدال والاستفادة من نقائصها، لحقّقت الكثير، حيث الصراع بدأ منذ سنة 1958 طبعاً لقلّة التنظيم، كون الثورة انطلقت قبل أن تُنظَّم من الداخل:« **ونتيجة لبروز تلك الصراعات اللامعقولة داخلها، منذ سنة 1958، لا فقط..صفتها كحزب مجسّد للسلطة السياسية وكقائدة للأمة، بل وصفتها الثورية ذاتها** »،[1] لكننا نعتقد بعد قراءاتنا لتحليلات الأستاذ- حمانه- أنّ ميكانيزم- *التوقف*- الذي اعترى سنوات 1958 كان لمراجعة تنظيم الثورة أكثر علمية، وما التعثرات والصراعات في عمل الثورة إلاّ قناعةً على المضي في التفاف عموم الشعب حول قُدّسيّة هذه الثورة التي جاءت كمكسب وطني وقومي، فيضعنا الفيلسوف على منعرج خطير وواقعي في نفس الوقت، وهو أنّ هاجس اليساريون والماركسيون الاشتراكيون وإن كان همهم هم التزوُّد من هذه المبادئ وتوظيفها في عملية تحريك التاريخ الذي بدأ مع نوفمبر 1954، إلاّ أنّها كثيراً ما كانت تخفي وراءها انتهازيين وشبه مناضلين ودعاة للحرية والتحرر.

لقد كشف التاريخ أثناء الصراعات مع سنة 1958، إتاحة الفرصة للوطنيين فقط أن يُعيدوا تنظيم الحركة الوطنية الجزائرية تحت لواء جبهة التحرير من خلال فلسفة- *التوقف*- لخلق إيديولوجيا ثورية كفيلة بتمثيل الثورة

والشعب، وقادرةٌ على مواجهة إيديولوجية المنتهزين ومحبي السلطة همُّهم ليس الثورة ولا الشعب، بل أنفسهم، والتراجع بهذه الثورة إلى نقطة الصفر.

نختلف مع الأستاذ- حمانه- وهو الأستاذ الكبير المعلِّم على أنّ القطيعة تتأسّس على إستراتيجية - **التوقف**- وليس على - **الموقف**، كون ا لموقف ليس سوى تعبيرٌ عن حالة نفسية- اجتماعية قد تأخذ شكل قطيعة مطلقة، أما التوقف فمعناه مراجعة الأخطاء لتصحيح عملية تقويم عمل الثورة، وعمل الذات في تصالح مع نفسها ومع الآخرين، فهو إشراكُ كل القوى الفاعلة المثقفة وغير المثقفة (المجتمع)، لأنّ ما آتٍ هو قريبٌ منا وما مضى هو ماضٍ قريبٌ نعود إليه دوماً لتصحيح مبادئ الثورة وإستمراريتها.

وعليه، أدركنا أثناء قراءاتنا لتحليلات الأستاذ- حمانه- أنّ الهدف لا يتحقّق إلاّ بمراجعة:« **الفرضيات الخاطئة التي سبقت مرحلته الحاضرة** »[1] حيث استمرار مسار الفلسفة الثورية يكون بتمثل لكل أفكار الحركة التي تبنّت نهج الثورة والتي تكون قد أخفقت في نهجها، لكنها كانت تجربة لفلسفة الثورة كقناعات اجتماعية وسياسية وثقافية ودينية، نجحت في استقطاب المجتمع برمّته حولها، وجعلته يتبنى مبادئها ويعمل بمقتضاها لا كتعاطف، بل كعمل وممارسة وهذه ميزة فلسفة الثورة التي نشأت في رحم الشعب بمختلف شرائحه وتوجهاته، ما دلّ على إجهاض تنبؤات المستعمِر بنهاية الثورة كما انتهت المقاومات والانتفاضات بنفس المآل، وهنا اخترق الفكر الثوري الشعبوي لكل التوقعات الاستعمارية المزلّفة.

لقد استطاعت فلسفة الثورة أن تؤثر حتى خارجيا في أن يكون لها موالين في الموضوعية اتجاه الجزائر جزائرية، وهذا بفعل ما فرضه الوضع الاجتماعي الثوري في الجزائر، حيث أنّ الجزائر ليست حزبٌ يساري أو يميني أو الشعب أو النصر...بل الجزائر هي الشعب نفسه..

الهوامش والإحالات.

المقالات.

حتى يظل باب الاجتهاد مفتوحاً.

عن الحرية وعن الفلسفة في القرن الحادي والعشرين.

العولمة والتربية ومطلب الهوية.

التراث السياسي العربي والإسلامي والديمقراطية.

الأبعاد العربية للثورة الجزائرية.

ابن تومرت والطرطوشي: من حلم الدعوة إلى حلم الدولة.

الكتب.

تأملات في الدّين والدنيا، ط1، 2012.

فلسفة الثورة الجزائرية، طبعة مزيدة ومنقحة ، د: (س، ط).

Ecrits philosophiques.

1– البخاري (حمانة)، **فلسفة الثورة الجزائرية**، طبعة مزيدة ومنقحة ، د: (س، ط) ، ص 09.

2– المصدر السابق، ص 10.

3– المصدر نفسه، ص 11.

4– المصدر نفسه، ص 12.

5– المصدر نفسه، ص 13.

6– المصدر السابق، ص 26.

7– المصدر نفسه، ص 27.

8– المصدر نفسه، ص 28.

9– المصدر نفسه، ص 31.

10– المصدر السابق، ص 59.

** – استعملنا الانقلاب البعدي، حتى نميزه عن الانقلاب عند الأستاذ– حمانه– والذي قصدنا به فقط الإصلاح للواقع السيئ وهو نفسه يشير إلى فلسفة الثورة..

11– المصدر السابق، ص 71.

12– المصدر السابق، ص 132.

Cf. Bentobal ; Conférence aux cadres du FLN، in Harbi، le mirage، 1960.

13– المصدر نفسه، ص 133.

14– مالك بن نبي، **مشكلات الحضارة: بين الرشاد والتيه** ، دار الفكر المعاصر– بيروت(لبنان)، فبراير 1979، ص 14.

أنظر أكثر.

بخاري حمانه، فلسفة الثورة الجزائرية، ص 139.

15– بخاري حمانه، المصدر نفسه، ص 143.

16– المصدر السابق، ص 145.